مقارنة للجمال بين أدب العقاد و الرافعي

الدكتور حسين ناظري* / الدكتور عباس عرب** / علي كفاش زاده***

تاريخ التسلُّم: ٢٠١٨/٠٩/٢١
تاريخ القبول: ٢٠٢٠/١٠/٠١

الملخص

يتفق النقاد والأدباء على أن معركة الرافعي مع العقاد كانت أعنف معركة في ميدان الأدب بوجه عام، و بالتأكيد من أهم هذه المفاهيم الأدبية التي تشكل مفارقة كبيرة لدى أي منهما مقابل الآخر هو مفهوم الجمال، و الجمال الفني في العمل الأدبي.

يتسم فكر الرافعي و نظرته إلى الجمال بسماتٍ مثالية مع نغمة صوفية مكسوة برداء عقلي إثر تأثره العميق والكبير بتعاليم الدين الإسلامي، ورجال التصوف المسلمين و فهمهم للجمال.

ويرى العقاد الجمال صفة في الجميل نفسه، ويرى أننا نظلمُ أعيننا وأذواقنا، و لا الزهرة الجميلة، مثلاً حين نقول: إنها قبيحة و مُزرية، وهو هنا موضوعي إذ يجعل الجميل ذاته موضوع الجمال، من خلال جمعه بين الحرية والجمال.

مفاتيح‌البحث: العقاد، الرافعي، المعركة الأدبية، الجمال، العمل الأدبي

* جامعة فردوسي مشهد (إيران)
** جامعة فردوسي مشهد (إيران)
*** طالب الدكتوراه في الأدب العربي بجامعة فردوسي مشهد (kafashzd@gmail.com)

المقدمة

هذا هو الرّافعي مُعجزة الأدب، ونابغة العرب، الذي لم يترك كاتبًا إلا ونازله في باب النقد عنيفًا غير مُستمهلٍ، و هو فارس كانت له طلائع جليلة في ساحات اللغة و الدفاع عن الدين، فمُذ نشأته اعتاد الوقوف في أرض المعركة يستلّ قلمَه ليقسمَ به ظهرَ هذا و يقطع به لسانَ ذاك، و هو أيضاً كاتب نشأت بينه وبين العربية أواصر بلا نهاية، فكانت بلاغته الفريدة وأساليبه الجزلة العظيمة علامة مُضيئة في سطور اللغة.

أما الثاني فهو كاتب لا يخفى اسمه على أحد صغيراً كان أو كبيراً، العقاد ذلك الكاتب الذي تحدى الظروف أصعبها و واجه الصعاب أشدّها، فنزل إلى رغبته التي لم يوفرها له التعليم، فقرأ كمسافر بلا مقصد، و تثقف مستبحراً هنا و هناك، لم يترك باباً للثقافة إلا و طرقه.

بدأت المَعركة منذ صدور كتاب «الديوان» للعقاد و المازني، والذي تناول فيه العقاد الرافعي نقداً واسعاً، و استؤنفت المعركة بصدور كتاب «إعجاز القرآن» للرافعي، كما يرويه العريان في كتابه «حياة الرّافعي».

ثم كتب الرّافعي مجموعة مقالات نقدية لاذعة، جرد فيها العقاد من كل عظيم، فألصق معظم أعماله بالسرقة الأدبية منها ما قاله في مقالته «العقاد اللص» الذي نُشرت في مجلة العصور،شهر نوفمبر، عام الألف وتسعمائة وتسعة وعشرين الميلادية.

مهما كانت أسباب هذه المعركة فهي تكشف عن اختلاف و افتراق بينهما في الرؤى و الآراء خاصة منها ما يتعلق بحقل الأدب حيث حاول كل منهما النيل من مؤهلات الآخر و استحقاقاته التي كان قد هيّئها لهما الذوق الموهوب و الأدب المجهود.

انطلاقاً من هذا الجانب، راعنا أن نتعرض لقضية الجمال و جمالية الأدب والتي افترضناها مختلفة لدى الاثنين باختلافهما في الذوق و التجارب مما يجعلهما يعبّر كل واحد منهما عن ظواهر الأدب و تأثيراته في منهجيته الخاصة به.

ففي هذا المقال نحاول الحصول على النقاط الأساسية و المفارقات المتعلقة بقضية الجمال المتمثل في النتاج الأدبي عند العقاد و الرافعي و إن حصلنا على شئ

سنعزوه إلى افتراق الذوق ما أدى بهما إلى معركة قد عدت حدود الأدب إلى الانتقاص من الشخصية.

فمن هنا نقول إنّ الجمال جوهر الكون، والذات الإنسانية لايمكن أن تحيا بغير الجمال، لأنها أصلاً في فطرتها الأولى مجبولة عليه، مفطورة على حبه مطبوعة على الاستلذاذ به، وصياغة هذا الجمال الكوني، وإبداع هذا الجلال النفسي، والإحساس الرقراق المتفق بعمق هذه الفطرة مهمة من مهمات الأدب، لأنه يكشف عن الحقائق الصادقة، ويعرض عن المزيف المصنوع.

ولقد أنعم الله على الإنسان أن خصّه بتمييز الجمال، فمن منا لم يحسه أو يشاهده ؟ وهو حولنا وفي كل مكان في لوحات الطبيعة الرائعة، وفي نغمات الشعراء ولمسات الفنانين، لقد تغنى به الشعراء منذ أقدم العصور وامتلأت به نفوس الملهمين والمبدعين، وحار في تصويره الناس، ولكنهم أجمعوا على أن الجمال من عند الله تعالى، يتجلى في آياته ومخلوقاته.

والأدب إبداع والجمال يكمن في الإبداع الذي يصنعه الأديب، فيتذوقه الإنسان وينفعل به تعبيراً عن إحساسه الفطري.

التمهيد

الجمالُ لغةً

مصدر الجميل، والفعل جَمُلَ (ابن منظور،٢٠٠٠م، ج٣: مادة جمل.فالجمال هو الحسن في الخَلق والخُلق وهو الاتئاد والاعتدال (ابن منظور،٢٠٠٠م، ج٣: مادة جمل).

وفي مختار الصحاح أنّ الجمال يعني الحُسن، و (جَمُل) الرجل بالضم جمالاً فهو جميل والمرأة جميلة (الرازي،١٩٨٣م:مادة جمل).

ويقال إنّ فلاناً يعامل الناس بالجميل، وجامل صاحبه مجاملة، وأجمل في الطلب إذا لم يحرص (الزمخشري،١٩٨٥م:مادة جمل).

وفي معجم الراغب الأصفهاني: الجمال، الحسن الكثير وذلك ضربان، الأول: جمال يختص الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله، والثاني ما يوصل منه إلى غيره، وقولهم جمالك أن لا تفعل كذا، أي إلزم الأمر الأجمل ولا تفعل ذلك (الإصفهاني، ١٩٧٢م: مادة جمل).

الجمال اصطلاحاً:

الجمال هو الحُسن، وحسن الصورة والسيرة، والجمال يُطلق على معنيين أحدهما الجمال الذي يعرفه الجمهور مثل صفاء اللون ولين الملمس وغير ذلك، وثانيهما الجمال الحقيقي وهو أن يكون كل عضو من الأعضاء على أفضل ما ينبغي أن يكون عليه من الهيئات والمزاج (صليبا،١٩٧١م:٤٠٨).

والجمال هو ما يسر السمع ويبُهج النظر، فيصبح موضوعاً للتأمل يدرك عن طريق الحواس أو في داخل الذهن ذاته (لؤلؤة، ١٩٧٨م:٣٧).

ويرى الباحثون أنّ العلمَ الذي يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته يسمى بعلم الجمال، وهو باب من الفلسفة، فالجمال أحياناً في الأشياء، وفي مدى موافقته لنا، وهو في الخير أو النافع، وهو أحياناً في أرواحنا.وفي بعض الأفكار يتمثل الجمال في التوازن والتناسق والتناغم، والنظام الذي يجمع الأجزاء. وربما كان الجمال بوجه عام، صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سروراً ورضا (المالكي،٢٠٠٢م: ١٣٤).

للجمال قسمان هما: قسم نظري عام، وقسم عملي خاص (صليبا، ١٩٧١م: ٤٠٨ س).فالقسم النظري هو الذي يبحث في الصفات التي تشترك فيها الأشياء الجميلة، ويحدد القوانين التي تميز الجمال من القبح.أما العملي الخاص فهو الذي يطلق عليه الفني وله قيوده وضوابطه (نفسه: ٤٠٩).

أما أنواعه فهو على نوعين الصور والمعاني (ابن منظور، ٢٠٠٠م: مادة جمل)، فالصورة هي كل ما يدرك بحاسة البصر أو بالذهن والتخييل، فتستطيع أن تقول إنه (حسي) أو تخييلي، فهو يدرك بواسطة الحواس.وأما المعاني فهو الجمال الأخلاقي أو المعنوي.

الجمال الحسي ألفاظه غالباً ما تكون في وصف محاسن المرأة ومفاتنها، وفي ظواهر الجمال الأخرى كافة، أما الجمال المعنوي فهو جمال الفضائل وجمال الروح والأحاسيس (المنجد، ١٩٥٧م: ٥٨-٥٠).

الجمال عند النقاد العرب

لقد وضع ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) معايير جمالية، حدد من خلالها الصفات الحسية والقيم الجمالية للمرأة التي يجب أن تكون ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر، فتكون هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر (الجمحي، ١٩٧٤م: ٦).

كان ابن سلام يتذوق جمال الشعر العربي بوعي وخبرة، فهو ذو باعٍ طويل في معرفته، ومعرفة قواعده (البرجاوي، ١٩٨١م: ٢٧١)، إذ عرّف الشعر بأنه صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات (نفسه:٦).

ويرى ابن سلام أن الذي لديه القدرة على معرفة جيد الشعر من زائفه هو الناقد المتبصر، الذي يعتمد على حكمه بالجودة أو الرداءة (نفسه: ٥)، فهو يستطيع أن يلاحظ دقائق الأشياء وأن يلتفت إلى وجودها بدرجة أكبر من غيره (النويهي، ١٩٦٧م: ٦٤).

أما الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فقد أشار إلى الجمال إشارات عديدة في مواضع مختلفة، إذ جعل للجمال قيمة معنوية من خلال جمال المحاسن وحسن الصورة (الجاحظ، ٢٠٠٤م: ١٧٩/١) ويجعل الحب مرتبطاً بالجمال، لأنه يجعل المحبوب أكثر جمالاً في عين المحب (الجاحظ، ١٩٣٨م: ٤٨٨/٣)، فحاجة الرجل العاطفية إلى المرأة هي التي تجعله متبصراً بجمالها، ولذلك فقد ربط الجاحظ بين الحب والجمال.

وتطرق الجاحظ إلى الجمال الفني في العمل الأدبي من خلال ما ذكره حول قضية اللفظ والمعنى، فالمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي

والقروي والمدني، وانّما الشأن، في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك (نفسه: ١٣١/٣-١٣٢).

وتحدث الجاحظ عن الشعر والأدب وما لهما من قيمة فنية وجمالية ولاسيما الشعر الذي هو صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير (نفسه: ١٣٢/٤) وتعد هذه المقولة أقدم مقولة جاءت فيها لفظة التصوير واستخدمت استخداماً أدبياً في مجال الشعر.

وقد توافق الجاحظ مع آراء الفلاسفة المسلمين في مفهومهم للجمال وربطه بالجانب الديني، وأنّ الله هو صانع الكون وخالقه، وقد أضفى عليه جمالاً هو دليل قدرته (نفسه، ١٩٣٨م:١٠٩/٢).

وتحدث ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) عن الجمال في كتابه عيون الأخبار، فعقد بابين له، الأول تحدث فيه عن الجمال والحسن (الدينوري، ١٩٢٨م:١٩/٤) والأخر عن القبح والدمامة (نفسه: ٣٢/٤).وحدد بعض الصفات والمقاييس الجمالية التي كانت سائدة في عصره، وقال عن رأي أحدهم: هذا أجمل وجه رأيته، وكأنه سيف صقيل، ولم أرَ أحسن منه وجهاً(نفسه: ٢١/٤-٢٨).

ولكن المقياس الحقيقي للحكم الجمالي عنده هو حسن المنظر والجوهر، ولذا نجده أنّه قد قسم الشعر على أربعة أضرب، وعدّها مقاييس الجودة الفنية الجمالية، قائلاً: تدبرت الشعرَ فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه، وضرب قصرت ألفاظه وقصر معناه (الدينوري، ١٩٤٥م: ٩/١-١٠).

والضرب الثاني من هذه التقسيمات، هو الضرب الذي ربط ابن قتيبة فيه بين الأخلاق والشعر وهو محور الجمال، فابن قتيبة فقيه ورجل دين أراد من الشعر أن يتضمن فكرة أو حكمة أو معنىً تربوياً وأخلاقياً، فقد نظر ابن قتيبة إلى هذا الصنف من الشعر نظرة أخلاقية.

و ههنا يأتي، كما يأتي، نقل مفهوم الجمال إلى النتاج الأدبي وفقاً للشخصية و النزعات الفنية أثناء عملية الإبداع الأدبي عند العقاد و الرافعي.

مفهوم الجمال في أدب العقاد

ومن الأدباء المعاصرين هو الأديب الكبير عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤م) الذي يمتلك فلسفة عميقة في مفهوم الجمال، وظهرت تلك الفلسفة في أفكاره وأدبه ظهوراً جعله في طليعة الأدباء المعاصرين الذين اهتموا بفلسفة الفن وعلم الجمال، وذلك لاطلاعه على مفهوم الجمال عند أمم أخرى مشهودٍ لها بالتطور الثقافي الأصيل، مثل إدموند بيرك مؤلف الجليل والجميل، وفاليري ورومان رولان وغيرهم (راجع؛ فلسفة الفن في الفكر المعاصر: ٣٧٢).

وبهذه الحصيلة الثقافية الواسعة تبلورت لديه فلسفة حول مفهوم الجمال، فجعل العقاد الجمال والحرية شيئاً واحداً، واهتم بهذا المفهوم اهتماماً كبيراً، وذلك في مظهر من مظاهر الانعتاق من عصر الجمود والانطلاق إلى عصر التنوير والتجديد.

اقترن مفهوم الجمال بالحرية في كتابات العقاد، وخير دليل على هذا، مقالته باسم (فلسفة الجمال والحب) في مجموعته (مطالعات في الكتب والحياة) ومقالته عن معنى الجمال (في الحياة والفن) في مجموعته (مراجعات في الآداب والفنون)، ففيهما يُرجِعُ كلّ جمالٍ في الجسم البشري وفي الفنِّ على السواء إلى الحرية (العقاد،١٩٨٣م:٣٤٧-٣٤٨).

وبهذا المفهوم يقول العقاد: وخلاصة الرأي أننا نحب الحرية حين نحب الجمال وأننا أحرار حين نعشق منْ قلوب سليمة صافية فلا سلطان علينا لغير الحرية (نفسه:٣٥٠).

إنَّ العقاد بهذه النظرة لمفهوم الجمال يوسّعُ معنى الحرية لتشمل حتى الأشياء الجامدة الماثلة في الطبيعة، وهذا المفهوم للجمال يوجد في إدراكه للمحسوسات، إذ يقول: إنّ الماءَ الجاري أجَملُ من الماء الآسن، كما أنَّ الوردةَ الطبيعية أجملُ من الوردةِ الصناعية، وهَلُمَّ جَرَاً.

ويوسّع العقاد مفهوم الجمال ليشمل أطواراً أو مقاطع من الحياة، مثل الربيع والصباحِ والنورِ والصحةِ والشبابِ والحركةِ والمناظرِ الرائعة والخُضرة، كُلها جميلةٌ لأنها تُنعِشُ الحواس وتذكرها بالحياة (العقاد،١٩٩١م: ٣٠) ولعل جمالها عنده لا يتحقق إلا في ظل ذلك المفهوم.ولذلك العقاد يُعجَبُ بطائر الكروان الذي يعيش في مصرَ، وقد أهدى له ديواناً كاملاً (هدية الكروان) فيقول:

أَنا لا أراكَ وطالما طَرَقَ النُّهى ... وحَيٌّ: ولم تَظْفَرْ بهِ عينان
أَنا في جَناحك حيثُ غابَ مع الدُّجى ... وإنْ استَقرَّ على الثَّرى جُثماني
أَنا في لِسانِكَ حيثُ أَطلقَهُ الهوى ... مَرَحاً، وإن غَلبَ السُّرورُ لساني
أنا في ضميركَ حيثُ باحَ فما آرى ... سِراً يُغَيّبــهُ ضمـــــيرُ زماني
(العقاد،١٩٧٣م:٢٤)

يهدي العقاد خفق المشاعر ودفق الأحاسيس إلى الكروان ليوسع معنى الحرية في النُّفوس فهو يصور إدراكه للجمال من خلال إدراكه لمحسوس جميل في الطبيعة؛ العصفور الذي يتخذه رمزاً للحرية، ويربط من خلاله بين الجمال والحرية (فؤاد،١٩٧٩م: ١٥).فنجدهُ يقول في قصيدته عن «العُصفور» الذي يتخذُه رمزاً للحرية والجمال:

طارَ وليداً وطارَ شيخاً ... بينَ االبساتينِ والغُدُرْ
حَطَّ على الغُصنِ وانحدر ... أقلَّ من لمحةِ البَصَرْ
مُغرداً قطّ ما تَوانى ... مرفرفاً قطّ ما استَقَرْ
كخفةِ الطِّفلِ في صباه ... لكنَّها خِفةُ العُمُر
(نفسه:٨٢)

فعصفور العقاد يُرفرف بين الأيك والأيكِ ... بين السُحبِ والرَوضِ ... بين الماء والشجرِ، طائرٌ مرفرف بين الشبابِ والشيخوخة لا يسكُن له جناح، مرفرفاً قط ما استقر (نفسه:٢١).

لم يخلُ أدب العقاد من الإشارة إلى جمال الطبيعة، والتغني بمفاتنها، وفي ديوانه (عابر سبيل) قصيدة تكشف عن شيء من فلسفته في الجمال، يقول فيها:

إنَّ في القمراءِ من سحر الصِّبا مَسَحةٌ تَفتنُ عينَ الذاكرِ
تَلْمح العالمَ فيها مثلما لاحَ في عينِ شبابٍ باكرِ
بينَ نورٍ كشُعاعِ المختلى وانتباهٍ كنُعاسِ الخادرِ
(العقاد،١٩٧٣م:٤٥١)

لم يشر العقاد إلى القمر الذي اعتاد الشعراء التغني بجماله، إنما أشارَ إلى الليلةِ القمراء، متغنياً بجمالها الذي يرى فيه جمال الصِّبا وذكريات الشباب وحيويته، فإذا ظلامها نور في النفس، والنعاس المتوقع فيها يقظة وانتباه للحواس.

وإيثار العقاد لليلةِ القمراء لا يعني انغلاق ذاته على الإعجاب بها دون غيرها من الليالي، فلكل منها جمالها ما دامت النفس تحب الحياة، فيوازن العقاد من خلالها بين النور والظلام، لتشكل بنظره صورة جمالية في إبداع الطبيعة، ولهذا يقول:

لا أُثِرُ القمراءَ في حُسنها على الدُّجى والطَرف فيه يَحومْ
سَناكَ يا بَدرُ يُريني الثَّرى وظُلمة الليل تريني النجومْ
(العقاد،١٩٧٣م:٢٢١)

ولجمال المرأة الحسي مكانة كبرى عند العقاد، فهو يميل إلى نظرة العرب في وصف جمال المرأة، كونهم على حد قوله أصحُ ذوقاً من المُجملين المحترفين في العصر الحاضر، لأنَّهم يصفون المرأة الجميلة كما ينبغي أن تكون (راجع؛ هذه الشجرة للعقاد:١١٠) ولقد أبدع العرب في ذلك، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

إني رأيتكِ غادةً خمصانةً ريَّا الروادف عذبةٌ مبشارا
محطوطة المتنين أكملُ خلقها مِثلُ السبيكة بضّةٌ معطارا
(عبدالحميد،١٩٥٢م:١١٩)

فالعربُ أبدعوا في وصف جمال المرأة، وذوقهم أصح من الآلة السريعة في العصر الحاضر، الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل في استواء الأعضاء (راجع؛ هذه الشجرة للعقاد:١١١).

وجدنا العقاد يصف المرأة وصفاً دقيقاً، في قصته المشهورة بـ «سارة»، وقد كنَّى عن

نفسه بـ (همام) فقال: هي جميلةٌ، جميلةٌ لا مراء، ليست أجمل من رأى همام في حياته ولا أَجَمَلَ من رأيه في أيامِ فِتْنَتِهِ وشَغفَهِ. لونُها كلونِ الشَّهد المصُفى يأخذُ من محاسنِ الألوانِ البيضاءِ والسَّمراءِ والصَّفراءِ في مسحةٍ واحدة وعيناها نجلاوان، وفمُها فَمُ الطِّفلِ الرضيع (راجع؛ سارة للعقاد:٩٣).وفي كُلِّ حُبٍ بين رجل وامرأة شيء من حاسة الجمال (راجع؛هذه الشجرة للعقاد:١٧٧).

العقاد، الذي لم يقتصر اهتمامه على الجمال المادي، إنما سما إلى الجمال المعنوي، فهو لا يرى مانعاً من القول بأنّ الجمالَ في الفن والطبيعة معنوي لا شكلي، وأنَّ الأشكالَ لا تعجبنا ولا تجعل الفكرة التي تعبرُ عنها، وبغير الوظيفة التي تؤديها (راجع؛ فلسفة الفن في الفكر المعاصر، زكريا إبراهيم:٣٧٢-٣٧٣). والحرية عنده فضيلة من الفضائل ودليل رقي الأمم وآدميتها (العقاد،١٩٨٣م:٣٤٩).

والعقاد يرى أنَّ الأخلاقَ ما من جميل فيها، إلا كان جَمالُهُ على قدر ما فيه من غلبة على الهوى وترفُع على الضرورة وقوة على تصريف أعمال النفس في دائرةِ الحرية والاختيار (نفسه:٣٥٠). والجمال كما أشرنا سابقاً عندالعقاد هو الحرية، والحرية تُحققُ للإنسان منافع كثيرة لا نهاية لها، وبالجمال نسعى إلى بلوغ الحرية (فؤاد،١٩٧٩م:٢٣).

فالعقاد يرى في الطير عوالمَ شتى، فالطيور فيها من جمال الهيئة وتنوع الشكل ووفرةِ اللون، وخفة الحركة في الأرض، ورفة الجناح في السماء ما يجعلها من أجمل ما خلق الله، فنجده يقول:

كُلُّ ألفٍ من الطَّير إلفٌ هكذا تَجْملُ الحياةُ وتصفو
أملٌ يرتقي، وحبٌّ يُناجي ولسانٌ يشدو وقلبٌ يَرِفُّ
بِكَ خَفَّ الجناحُ يا أيها الطّـ ـيرُ وما كُنتَ بالجناحِ تَخِفُّ
(العقاد،١٩٧٣م:١٨٧)

فالطيور في نَظَر العقاد تملكُ صفاتٍ جميلةً عديدة، جعلت إيحاءها ودلالتها على الحرية أمراً مقبولاً عنده، آمن به ودافع عنه، والكونُ العظيم الشامل حولنا زاخرٌ بأنواع

متعددة وعجيبة من المخلوقات فالطائرُ في طيرانه رمزٌ للنَّفسِ الإنسانية في تحليقها وشوقها إلى السامي... إلى العالي... (فؤاد، ١٩٧٩م: ٢٨).

وجمال المرأة كان ظاهراً في أدب العقاد، فكانت أولَ امرأةٍ في حياته والدته، فكان طوال حياته يَكُنُ لها الحُبُّ والتقدير، حتى قال لها ذات يومٍ: لو وجدتِ لي زوجةً مثلك تزوجْتُ السَّاعة (العقاد،١٩٩٦م: ٣٣). وحتى حُبه لـ «سارة»، كان حُباً صافياً، عنيفاً حاراً، ودام ذلك الحُبَّ سنواتٍ عدة، ثم انتهى بالفشل لاختلاف ميولهما واهتماماتهما (العمري، شعر العقاد:١١٠) فيقول في قصيدته «ليلةُ البدر:

ليلةُ البدرِ، وقد كانَ الرِّضى مَوعِدَ الأهرامِ نبغي مَطلعا

فقضى اللهُ سِواهُ غَرضَاً

قد نوينا ونوى الغيبُ لنا نيةً أَمتَعَ للمُستَمتَعِ

(العقاد،١٩٧٣م:٣٤٩)

ويستمر العقاد بالحُب، ويلتقي بفتاةٍ أخرى، هي «مي زيادة»، وقد أحبها حُباً روحياً (العمري، شعر العقاد:١٠٨)، فتجسدت في ذلك الحُب كُلُّ قيم الجمال الروحي، كونها جليسةَ علمٍ وفنٍ وأدبٍ، وقد تحدث عنها العقاد في آخر قصة «سارة»، وكناها بـ «هند» (العقاد، ١٩٩٦م:١٢) ويقدس العقاد ذلك الحب ويجعل له كرامة وكبرياء وشموخاً، فهو حُبٌ تعبدي.

فكما الحُب قضاء وقدر، كذلك حتى الفراق قضاء وقدر لذلك يُسلِّمُ العقاد أمَرَهُ للقضاء والقدر فيعرض فلسفته في الحُب: إنَّهُ اندفاعُ روحٍ إلى روح، واندفاعُ جَسدٍ إلى جَسَدٍ... وإنَّهُ قضاءٌ وقدر، وإننا لا نُحب حينَ نختار، ولا نختار حينَ نُحب، وإنَّنا مع القضاء والقدر حينَ نُولَدُ وحينَ نموت (العقاد، ١٩٩٦م،١٣). والجمالُ هو كُلُّ ما يمُلي للنَّفس في الشعور بالحرية الموزونة، وكُلُّ ما يجنبها الشعور بالفوضى أو الشعور بالامتناع والتقييد (العقاد،هذه الشجرة: ١٠٥).

يرى العقاد الجمال صفةً في الجميل نفسه، ويرى أننا نظلمُ أعيننا وأذواقنا ولا نظلم الزهرة الجميلة مثلاً- حين نقول: إنها قبيحة ومُزرية، وهو هنا موضوعي إذ يجعل الجميل ذاته موضوع الجمال، من خلال جمعه بين الحرية والجمال (راجع؛ إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر:٣٧٢).

والفن في نظر العقاد هو الحرية، وينسب إلى الفنان أعلى درجة من درجات الحرية، ألا وهي القدرة الإبداعية، ويرفض العقاد رأي بعض فلاسفة الفن المعاصرين مثل بابير، أنه ليس للجمال قانون، وحُجة رفَضه أنّ حرية الفنان ليست مطلقة، وإنَّ للفن نفسهُ قواعد (راجع؛ إبراهيم، فلسفة الفن في الفكر المعاصر:٣٧٦)

العقاد الشاعر والمفكر يُقدسُ مع الحرية الفنَّ والفنان وبهذه النظرة للفن، يُجسِّدُ العقاد معنى الجمال، فالفنُ قيمة روحية والفنان الحُر يجعلهُ أعلى قيمة من المنافع:

والشِّعرُ من نفسِ الرحمنِ مُقتبَسُ والشَّاعِرُ الفَذُّ بين الناسِ رحمنُ

(فؤاد،١٩٧٩م:٢٨)

فالفنانُ عندما يكون عَمَلهُ حُراً، تحلو في عينيه كُلَّ الأشياء، فيصُورُها على وفق ما يريد بحرية تامة، ليكونَ بفنّه صورةً جميلةً ومعبرة، فيقول في قصيدته «العيشُ جميلٌ»:

صفحةُ الجوِّ على الزر قاءِ كالخَدِّ الجميل
لَمَعْةُ الشَّمس كعينٍ لمعَتْ نحو خليلِ
رجفَةُ الزَّهرِ كجسمٍ هَزَّهُ الشَّوقُ الدخيل
قل ولا تحفلْ بشيءٍ! إنمّا العيشُ جميلٌ

(العقاد،١٩٧٣م:٤٥٣)

ف«العيش جميلٌ» والعقادُ لاقى فيه أهوالاً، وهو يسعى إلى التمتع بجماله عن طريق الحرية، ولكنَّهُ الفنان الذي يحسُّ «رَجفَةَ الزَّهرِ» و «هزةَ الشوقِ الدخيل»، إنه الذي تُسْعِدَهُ أبسطُ الأشياءِ في أعينِ الناس، لأنَّها قيمةٌ في تصوره.

ولا يوجد تعريف في نظر العقاد للجمال أوفى من تعريفه بأنَّهُ كلَّ ما يمُلي للنفسِ في

الشعور بالحرية الموزونة وكُلُّ ما يجنبها ،الشعور بالفوضى أو الشعور بالامتناع والتقييد (راجع؛العقاد، هذه الشجرة: ٣٤) فإنَّ إطلاق الحرية للشاعر في توزيع القوافي حيث شاء يوشِكُ أنْ يَعفيهُ من قيودها كما يزيدُ الإيقاعَ جمالاً على جمال (راجع؛العقاد، اللغة الشاعرة: ١٥٤).

إنَّ العقادَ يجعل الأوزان معياراً لحرية الشاعر، تُبينُ ما عنده من قُدرةٍ وحريةٍ في الحركة وهذا هو الفرقُ بين القيود الذميمة والأوزان المستحبة فالقيود تقضي على الحرية والأوزان تُبرزها في صورتها التي تعزز المشيئة والاختيار.والحرية في مفهوم العقاد تعني التجديد في العمل الأدبي، وخروجاً عن النَّزعة التقليدية في الأدب العربي والشيء الجميل يُعد جميلاً لمطابقته معنى الجمال في الإدراك والحرية الموزونة والشعور بالحرية الموزونة هو الشعور بالجمال.

ويظهرُ ذلك التجديد في قصائده الغزلية، من ذلك قصيدته «الحبيب الثالث»، التي كتبها رداً على قصيدة للشاعر عبد الرحمن شكري بعنوان «الحبيبين». وصفَ شكري أحدهما بالجنة والآخر بالجحيم، فيجيء العقادُ بحبيبه الثالث وسطاً بين هذا وذاك (العمري، شعر العقاد: ٣١٨)، فيقول:

قلاكِ من دفاع نار الجحيم ... ووصْلُكَ الجَنَّةُ دارُ النَّعيمِ
وريقُكِ الكوثرُ لكنَّهُ ... كالمُهلِ في صَدْرِ المُحبِّ الكظيمِ
وخَدُّكِ الزَّقومُ مُرٌّ لِمَنْ ... تزويهِ عَنهُ وهو حُلْوُ الشَّميمِ
وأنتِ تضني كُلَّ جسمٍ سليم ... وأنت تشفي مِنْ ضَناهُ السقيمِ
(العقاد،١٩٧٣م:١١١)

قامت الأبيات على المقابلة والمعارضة بين النعيم والجحيم والمرارة والحلاوة والسقم والشفاء، فجمع تلك الأضداد ليجعل هذا الحبيب على صورة جامعة لصفات الحبيبين عند عبد الرحمن شكري.

والتجديد في غزل العقاد تمثَّل في الوحدة العضوية والنَّزعة الذاتية، غيرَ أنَّهُ التزمَ بعمودِ الشِّعر القديم من وزنٍ وقافيةٍ، ولم يجدد إلا في حدود ضيقة لا يَصحُ أنْ نعدها أصولاً لضرب من النَّظْمِ الجديد، بل لجأ إلى التجديد في حُدود المتاح من الأوزان،

فهو بذلك حافظ على الإطار الخارجي للقصيدة وجدد في مضمون هذه الصورة التي ضمها الإطار التقليدي (راجع؛ العمري، شعر العقاد:٣٢١).

إن ملكةَ عباس العقاد النقدية ظهرت منذُ مطلعِ حياته من خلال الدَّعوة إلى التجديد في الشِّعر الغنائي الذي يتكون منه التراث الشعري التقليدي، هذه الدعوة جاءت نتيجة تأثُر العقاد بالشعر الغربي، وبخاصة الإنجليزي منه. وتُوجَتْ هذه الدعوة بظهور كتاب الديوان للعقاد والمازني عام ١٩٢١م، الذي حملا فيه على زعماء الأدب التقليدي حملةً عنيفة (مندور، ١٩٧٧م:٧٥) وهذه الملكة التي يمتلكها العقاد تؤكِدُ أنَّ أسلوبَهُ قد ولد كاملاً.

ولقد اتخذ العقاد في كتابه مقاييس عدة في نقد معاني أحمد شوقي، وأهم تلك المقاييس ما تحدث عنه العرب القدامى، مثل «الإحالة» أي المبالغة في المعاني مبالغة مُسرفة فأخذ يفرعها إلى التَعسُفِّ والشَّططِ ومخالفة الحقائق، فهو يرى الخروج على مقاييس الذوق السليم انتهاكاً لمفهوم الجمال (الخطيب، ١٩٩٦م:٣٠٤) ومما استهجنه العقاد من شعر شوقي، قوله:

وأنا الذي أرثي الشموسَ إذا هوت فتعودُ سيرتها من الدوران
(نفسه:٣٠٩)

فَيُعلِّقُ عليه العقاد، فيقول: أي والله ظاهر لكنَّ الشموسَ والأقمارَ والنجومَ التي تُباع الحُزمة منها بخمس مليمات وفي هذه نظر(نفسه).

وكذلك الأمرُ في مقياس التَّقليد، فهو مقياس قديم أيضاً، وقد أخذ العقاد يبحثُ في تعسُفٍ عن سَرِقَاتٍ لشوقي، ويَتهِمُهُ بالتقليد وهو تكرار المألوف من القوالبِ اللفظية والمعاني وأيَسَرهُ على المُقلدِ الاقتباس المقُيد والسَّرقة (نفسه: ٣١١) فيرى مثلاً قولهُ:

فارفع لنْفسِكَ بَعَدَ موتِكَ ذِكْرَها فالذِّكرُ للإنسانِ عُمرٌ ثانٍ

يُعلِّقُ العقادُ عليه ويقول إنَّهُ مقتضب من بيت المتنبي:

ذَكَرَ الفتى عُمُرهُ الثَّاني وحاجَتَهُ ما فاتَهُ وفُضُولُ العيشِ أشغالُ

(نفسه)

ومن خلال نقد العقاد لشوقي يتبين أنَّهُ يرى أنَّ هدف الناقد الأصيل هو الارتقاء بآداب أمته إلى مرتبة الآداب العالمية (الديدي،١٩٨٧م:١٦٣) أو كما قال العقاد: عَملُكَ أنْ تنقلها من عالمها المقبور الذي هي فيه إلى العالم الحي الفائض بالمعاني التي فَكَّرَ فيها أفلاطون وعَبَّدها الغزالي وشَعَرَ بها شكسبير وغناها فاجنر (العقاد،١٩٨٣م:٦٥١).

وبهذا النقد الذي امتلكه العقاد، رَصَّن مقاييس الجمال الأدبي، فبغيره لا تستطيع التمييز ولا الموازنة، أو على حد تعبير العقاد: ذلكَ أنَّ الناقد حين يقول: هذا جميلٌ أو إنَّني أُفضلْ هذا فلابُدَّ أنْ يكون التعبيران بمعنى واحدٍ أي أنَّ الذاتية والموضوعية لا تفترقان في عملية النَّقد (الديدي،١٩٨٧م: ١٦٥-١٦٦).

ويتسم أسلوب العقاد بالتوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد، وهو يُمثلُ البلاغة العصرية أصدقَ تمثيل، وأنه أحد أعلامها البارزين والعقاد كانت تَحِلُ العبارة عنده محل الجسم الممشوق الذي يَعشقهُ في الأحياء والكائنات بل الجمال في الأجسام أشبهُ بالجمال في التعبير وأسلوبُهُ كان يشبه الأنموذج الجمالي الذي يُعجَبُ به في عالم الحس والواقع (نفسه:١٩).

كان العقاد من أشياع هيجل في نظريته الفلسفية بعامة وفي نظريته الجمالية بخاصة، بل نستطيع أن نقول عنه: إنّهُ الفرع المصري في المدرسةِ الهيجلية (نفسه:١٧٣).

الجمال في أدب الرافعي

أحبَّ الرافعي الجمال وعشقه، وكان له بصمةٌ واضحةٌ للجمال من خلال فهمه الفلسفي الواسع، الذي ظهر بشكل واضح في مؤلفاته مثل «حديث القمر» و «رسائل الأحزان» و «السحاب الأحمر» و «أوراق الورد»، وبعض مقالاته في «وحي القلم» (البدري،١٩٦٨م:٩) وزيادة على ذلك ما كتبه في بعض قصائده الشعرية التي تضمنت مفهوم الجمال، وكانت في غالبها ذات طابعٍ إسلامي (الشكعة، ١٩٨٣م:٢٢).

لقد كانت نشأة الرافعي دينية وفي أسرة معروفة، ومن نسب معروف (البدري،

١٩٦٨م: ٢١٩)، فكان لهذا أثر كبير فيما آل إليه من بعد، إذ تغلغلت آداب تلك النشأة في عروقه، وملكت عليه جوانب حسه ووجدانه، وانطبعت صورها في ذهنه لتظهر بعد ذلك أصداء يقظته في فنه وشعره، وأدبه، ولتنتظم بعد ذلك كُلِّه في كلمته وفلسفته (نفسه:٢٨٣) فيقول: كُنت في العاشرةِ من سني، وقد جمعتُ القرآن كله حفظاً، وجوَّدَته بأحكام القراءة (بديوي، ٢٠٠٧م:٧٨٣/٣).

وإنَّ من روافد فهمه الجمال اتصاله بمحمد عبده، إذ كان له أثر واضح فيه، وفي رؤياه للجمال (نفسه:١/ ٢٥).واعتمد في تجسيد ثقافته وفهمه للجمال على مصدرين أساسيين هما: التراث العربي والدين الإسلامي (الشكعة، ١٩٨٣م:٢٢).

وقد تأثر مفهومه لجمال المرأة بمثال رآه في «عصفورة» فتاة عشقه الأول في حياته، و «مي زيادة»، ثم ينطلقَ لفهم الجمال إلى العالم الخارجي.وبدأ مفهومه للجمال الحسي ينمو ويزداد بتأثير ذلك المثال الذي رآه، وكان هذا المثال محفزاً من محفزات الإبداع عنده، فهو يفهم الجمال الحسي من خلال قوله: لا أُحبُ إلا لثلاث: لأعرف، وأحسَّ، وأتخيل (الرافعي، ٢٠٠٨م: ٥٨).

وكان الرافعي كُلّما أحسَ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن واحدة فيبادلها مشاعره وأحاسيسه فيكتب لها شعراً (العريان،١٩٥٥م:٩٧)، فلذلك أحبَّ الرافعي وعشق وبدأ بخوض تجربته أول مرة حينما التقى بـ «عصفورة»، وأخذ يستلهم منها معاني الحب والجمال، فنجده يقول:

عصافير يحسبنَ القلوبَ من الحُبِ فمن لي عُصفورةٌ لقطت قلبي
(الرافعي،١٩٠١م:٦٧)

وكانت ثمرة ذلك الحُب الأول في حياته، أكثر قصائده الغزلية في الجزء الأول من الديوان؛ حتى لُقب شاعر الحُسن وسمي أيضاً بشاعر الحُب والجمال لشده ولعه بالغزل (البدري، ١٩٦٨م: ٢٠٩)

وهو يرى أنَّ جمال المرأة يجذب كل من يراه، فتُدرك الحواس قيمته كما تدرك الأبصار نجوم السماء، وتتمثل أسلحة الحب لدى المرأة بالشباب والجمال والنضارة،

لتغزو قلوب مُحبيها، في هذا يقول الرافعي:

سيَّالةُ الأعطافِ أين ترنَّحت تُطلقْ لكهربةِ الهوى سيَّالَهَا
طلبوا لها شَبهاً يُضيءُ ضياءَها لهوى النواظر أو يُدلُّ دِلالَها
(الرافعي،٢٠٠٨م:٦٣)

ويقول في موضعٍ آخر:

نظرت إليها نظرة فتوجعت وثنيت بالأخرى فدارت رحى الحرب
فمن لحظةٍ يُرمى بها حدُّ لحظةٍ كما التحمَ السيفانُ غَضْباً على غَضْبِ
(الرافعي،١٩٠١م:٦٧/١)

يصور الرافعي بألفاظ مدوية قوية شدة تأثير هذه المرأة ووقع جمالها الآسر على الرجال، ويشبّه الرافعي في موطنٍ آخر جمال وجه المرأة بالقمر والشمس، بل يعده كل من ينظر إليه من الذين قالوا ثلاثاً من الديانة المسيحية قمراً ثالثاً، ويقول:

أنتَ كالبدرِ حين يطلع لكن في سواد القُلوب والمقُلتين
لو رآكِ الذين قالوا ثلاث بعد وهنٍ لثلثوا القمرين
(الرافعي،١٩٠١م:١٧٦)

الرافعي كغيره من الأدباء لم يخلُ أدبه من وصفِ جمالِ الطبيعة الفتَّان، فهي جميلة بنظره، بل هي فوق أن تكون جميلة (الرافعي،١٩٧٤م:٦٨) و جمالها المنظور أفاض بتجلياته على نفس الرافعي، فبدا واضحاً مفهومه لجمال الطبيعة، بقوله: لله أنت أيتها الطبيعة الجميلة، ولله جمالكِ الفَّتان الذي يترك من حُسنه بقيةً في كل عينٍ تحدّق إليه فتجعل كل شيء تصادفه جميلاً (نفسه:٧٦).

ولدى الرافعي ما يُضفيه من مشاعر وأحاسيس، تجاه الطبيعة والكون، مُجسداً بذلك فهمه للجمال الحسي تجاهها، فتتولد لديه من خلال مشاهدته الطبيعة والكون أفكاراً تنعكس على فهمه الجمال، من خلال وصفه لمحسوس خارجي بمثالٍ رآه في القمر، فالرافعي يتحدث معه ويناجيه، ويصف حركة النجوم حوله التي تظهر جمال الطبيعة، قائلا: أيها القمر! الآن وقد أظلم الليل وبدأت النجوم تنضخ وجه الطبيعة -

التي أعيت من طول ما انبعثت في النهار- برشاش من النور الندي، يتحدر قطراتٍ دقيقةً منتشرةً، كأنها أنفاس تتثاءب بها الأمواج المستيقظة في بحر النسيان، الذي تجري فيه السُفن الكبيرة من قلوب عشاقٍ مهجورين برَّحت بهم الآلام (نفسه:٧).

أحبَّ الرافعي القمر وأعطاه حيزاً واسعاً في أدبه، مثل حجمه الطبيعي والجميل في الكون، فوهب له كل حواسه وفكره وعقله، بل أسلم له كل كيانه، فاستسلم له القمر وأعطاه كل ما أراده من مناظر جميلة وأفكار، يصل بها إلى حبيبته أو عواطف ينبغي التعبير عنها، فبدأ يرى فيه آفاق الأمل، فيشاركه دموعه وأحزانه، قائلاً: وكم ناجاك أيها القمر من عاشق قبلي، فإنّك ما انفصلت عن الأرض إلا ليجعل الله منك أفقاً لآمال الإنسانية الجميلة، بل أنا لا أحسب عاشقاً من لا يناجيك، ومن لا يأتي بدموعه وأحزانه وهواجسه وآماله، فينطرح في هذه اللُجَّة التي ترسلها من شُعاعِك (نفسه:٩٩).

والقمر يخفف عنه الألم بضيائه المشرق ونوره الساطع في ظلام الليل، ولولاه لأصبحت الحياة كلها مظلمة لا تطاق ولا يفهم معناها، فهو يقول:

فيا قمر الأفق ماذا الزَّمان ... جيلٌ تخلَّى وجيلٌ غبَرْ
ويومٌ يَفِرُ ويومٌ يَكِر ... فآنا نساء وآنا نُسَرْ
بربك هل بالدجى لوعة ... فإن غابَ عنه سناك ابتكَرْ
(الرافعي،١٩٠١م:٥٩/١)

فالقمر يثير في النفس معاني ومشاعر لا حصر لها، يثير فيها مشاعر الطفولة التي تحبو، ويُثير فيها معاني الأمل في مستقبل بسَّام وضيء، ويُثير فيها شعوراً يجدد الحياة، وقد يثير فيها إحساساً ما بعد إحساس (إسماعيل، ١٩٧٧م:١٠٥).

ويستمر الرافعي بوصف القمر مُنبهراً بلونه الجميل، زاهي البياض كالزهر الأبيض، مشيراًالى إنعكاس هذا اللون على حواسه ليزداد اتجاهه إحساساً بالجمال، إذ يقول: كنت جميلاً، ولكن جمال الزهر الأبيض، وكنت في رفقتك المضيئة تشبه النهار مطوياً بعضه على بعض حتى يرجع في قدر المنديل (الرافعي١٩٦٧م:٥١). وينظر الرافعي إلى الطبيعة نظرة المفكر العاشق، فيعرف صفات الجمال فيها، فلم يرَ الأشياء بأسمائها وألوانها بل عرف حقائقها, ومعانيها (الرافعي٢٠٠٧م :٦٨).

ومن مواضع جمال الطبيعة التي رأى فيها الرافعي ذلك، وصف منظر السماء، وقد طرزها خياله بالذهب والدر والياقوت، ويكتحل جمال تلك الصورة بإقبال الليل عليها نافضاً غبار النَّهار، وهو يرتدي رداءه الأسود، فيقول:

ثــوب الســماء مُطــرز بالعَسْــجَد وكأنّهــا لبســت قمــيص زُبرجــد
والشــمس عاصــبة الجبــين مريضــة تصــفُر في منــديلها المتــورد
حســدت نظيرتهــا فأســقمهما الأسى إنَّ الســقام علامــةٌ في الحســد
ورأت غبــار الليــل يــنفض فوقهــا في الأُفق فانطبقت كعين الأرمد
ومضى ــ النّهــار يشــقُ في أثوابــه حُزنــاً وأقبــلَ في رداءٍ أســود
(الرافعي،١٩٠١م:١/٥٠)

يصور الرافعي جمال السماء، من خلال حركة الليل والنهار، وتزداد تألقاً وجمالاً في وقت الليل، أكثر منه في النهار، الذي انطبق كما تنطبق عين الأرمد ويجمع الرافعي بين جمال السماء وجمال البحر، ليرسم صورة جميلة لطبيعة الكون والأرض، فنجده يقول: ما أجمل الأرضَ على حاشية الأزرقين البحر، والسَّماء! يكاد الجالس هنا يَظنُ نفسه مرسوماً في صورةٍ إلهية (الرافعي،٢٠٠٧م:١/٦٥).

أفاض الرافعي على البحر من حواسه، ومن خلال حاسة الشم حين تَنَسَّمَ هواءه، فكان مُشبعاً من بخار الماء، فكأن تلك البلة بحرٌ ذائب في الهواء، ومن هوائه يتولد لديه إحساس أنَّه قد شبع من نسيمه، وبالتالي يحس كل من تنفس هوائه كأنَّ في صدره موجة من الأمواج الثائرة التي تعلو ماء البحر.ويصف الرافعي لونه الأزرق الجميل، وإيحاءاته للنفوس، فيقول: ويوحي لونك الأزرق إلى النفوس ما كان يوحيه لون الربيع الأخضر إلا إنّه أرق وألطف (الرافعي،٢٠٠٧م:٦١). فالرافعي يستلهم من الطبيعة والحب والمرأة معاني الجمال الحسي في أدبه.

ويذهب الرافعي إلى منظر الربيعِ وجماله، وغمرة ألوانه، وهوائه النقي الذي يعيد الحياة للطبيعة، فيقول: في الرَّبيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض، وتظهر ألوان النفس على النفس ويصنع الماءُ صُنعَه في الطَّبيعة، فتخرج تهاويل النَّبات، ويصنع الدَّم صُنعه، فيخرج تهاويل الأحلام، ويكون الهواء كأنَّه من شفاهٍ متحابة يتنفس

بعضها على بعض (الرافعي، ٢٠٠٧م: ٥٤/١).

ويبدو أنّ الرافعي قد أضفى شيئاً غير قليل من أحاسيسه على وصف الربيع، من خلال حركته في صنع جمال الطبيعة، فوفرة الماء في الربيع تخرج زينة النباتات، وبالتالي يتكون هواؤه النقي الذي يتنفسه الإنسان وكأنَّه يخرج من شفاة جميلة ويرسم صورة الربيع الجميلة، وقوة حركته في الطبيعة، ليفيض جماله حتى يطغى على الأرض، فيجعلها منظراً من مناظر الجنة، فيقول: ويطغى فيضان الجمال، كأنّما يراد من الربيع تجربة منظر من مناظر الجنة في الأرض (نفسه:١/ ٥٥).

ويرى الرافعي أنَّ الجمال الحسي يصل بنا إلى الجمال الروحي، إذ ليس كل ما تراه فتعجب به يرضيك، ولكن كل ما يرضيك يعجبك، فالجمال المحسوس الوصفي يقاس بالنظر ويخرج منه الفكر بنسبة هندسية، وهو جمال صحيح، ولكنه كالقصر المُشيد ظاهره وشكله الخارجي جميل، لكنّه لا يُرضي الفقير، والذي يرضي الإنسان الجمال الروحي، الذي يُعجب ويرضى به، كونه الجمال الحقيقي لا الخيال (الرافعي،١٩٧٤م:١٥-١٦).

ولعلنا ندرك حقيقة الجمال عنده تتحدد في قوله: الجمال في حقيقته التي لا تختلف إنما هو معنى من المعاني الحبيبة، تعلقُ بالنفس فيحدث فكراً متمكناً تتطاوع له هذه النَّفس العاشقة (الرافعي، ٢٠٠٨م: ١٠٤) فالنفوس هي التي تدرك الجمال (الرافعي، ١٩٧٤م: ٧٦) ولاشك في أنَّ الجمال الذي ينشده الرافعي هو الجمال المعنوي وهو الأسمى والأرقى والابقى، فيقول: وما هذا الحب إلا فكر الجمال وأثر عمله في النَّفس (الرافعي، ٢٠٠٨م: ١٣٢).

وكذلك يرى الرافعي في الجمال الروحي وظيفة لتهذيب النفس، وطريقاً يوصلنا إلى الجمال الحقيقي الذي ينبع من تلك القوة السماوية التي نسميها الجاذبية؛ فكأنَّ الله -على حد قول الرافعي- حين يُبدع الجميل يُرسل في دمه مع الذرة الإنسانية ذرة من مادة الكواكب، هي سر عشقه وجاذبيته وهي قوة للجميل بذاته (نفسه: ١٢٦) وهذا الجمال الذي يُحدثنا عنه الرافعي، هو مثال الجمال الكامل الذي لا يقرّهُ إلا مثال الحُب الكامل (الرافعي، ١٩٧٤م: ٢٩).

فنظرة الرافعي إلى الجمال نقلته من الحسية إلى المثالية، والمرأة والطبيعة مصدران يستمد منهما موضوعي الحُب والجمال، ويقيم عليها فلسفته الجمالية، والجمال الحسي عنده يصل بالإنسان إلى الجمال الروحي، فتتحقق العبودية لله وحده (نفسه: ٢٦-٢٩)

والذي يتصفح أدب الرافعي سيجد أنه نظر إلى الجمال الروحي والحقيقي من خلال استيعابه لجمال كل ما يحس به، ويرجعه إلى الخالق سبحانه وتعالى، فلذلك يستلهم كلاً من الحب والمرأة والطبيعة والأشياء الأخرى في الكون لتثبيت مفهومه للجمال الروحي لا لذاته، بل بقوة سماوية تعمل عملها لتبدع من الإنسانية شعراً أسمى من حقائقها (الرافعي، ١٩٦٧م: ٢٧).

ولما كان القلب هو سر الجمال الإنساني، لأنّ فيه بركة النَّفس وزينتها وسكنها، فالبركة تنبت من الخُلق الطيب، والزينة تخرج من الفكر الجميل والسكن يثبت بالإيمان واليقين، وما جمال النفس الإنسانية إلا خلق وفكرة وفضيلة مؤمنة فإدراك أي شكل من أشكال الروح إنما هو متاع الروح الإنسانية على طريقتها الأولى في عهدها الأول (الرافعي، ٢٠٠٨م:٩٧).

ويتضح مفهوم الرافعي للجمال الروحي من خلال مثالٍ يُقدمه لنا، يبين حقيقة الحب إذ يقول: فمن أحبَّ ورأى حبيبته من فرط إجلاله إياها كأنها خيال ملك، يتمثل له في حُلمٍ من أحلام الجنة، ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية، وفي خدَّيها توقد الفكر الإلهي العظيم، وعلى شفتيها احمرار الشفق الذي يُخيل للعاشق دائماً أنَّ شمس روحه تكاد تُمسي...، ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الإلهي الخالد الذي يُدرس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمسُّ، فأطاعها كأنها إرادته واستند إليها كأنها قوته، وعاش بها كأنها روحه– فذلك هو الذي يشعر بحقيقة الحب ويفهم معناه السماوي (الرافعي، ١٩٧٤م:١٥). وهذا ما جعل الرافعي ينعت الحب بالعبودية، ويجعله مبدأ العبودية الصحيحة لله والتي هي عبودية الجمال.

ولقد تَطّلعَ الرافعي إلى ألوان الجمال كلها في المرأة، فلا غرابة أن يقرن جمالها الخَلْقي بجمالها الخُلقُي، ويعبر عن جمالها الروحي، فيمزج بين الإثنين بمعانٍ أخرى

من الجمال النفسي والفكري. فكان يرى الحُب في جمال حواء ودموعها والدين في تقوى آدم (نفسه: ١٢٦). لذلك رأى الرافعي في حبيبته الأولى «عصفورة» ذلك المفهوم، فهو يرى في حبها الحياة بعد الموت، فيقول:

لي فيك عصفورة لو أنها انطلقت رأيتُ كيف يعاد الميت الفاني
(الرافعي،١٩٠١م:٧٩/٢)

وكان لانعكاسات هذا الحُب والجمال على نفسه، أن صار الجمال برأيه حكمة خلقها الله ليذكرنا باليوم الآخر، فنجده يقول:

خلق الله الجمالَ حكمة تُذكِّر الناس نعيم الآخرة
كل عينٍ سهرت فيه ولم تكُ من قبل الهوى بالسَّاهرة
(نفسه:١٠١/١)

فيقترب الحب عند الرافعي من العبادة، إذ لا تقل قوته عن قوة الإيمان إلا قليلاً، والفرقُ بينهما أنّ الخطوة قصيرة إلى القلب طويلة إلى السماء، فالحبُ يجعل كلَّ سهلٍ واضح في الأشياء غامضاً مُعقداً في النفس، وهذا هو سرّه، وبهذا يرتفع بالإنسانية، ويجنح إلى التأله (الرافعي، ١٩٦٧م:١٨٢).

ومن هنا جاء تعريف الرافعي للحُب بَأنه قدرة إنسان على قلب إنسان، فهو من ثم قدرة على الكون المتصل بالعاشق، وهو بهذه القُدرة أشبه بألوهية، لو ساغ في الظن أن توجد إلوهية عاجزة عن كل شيء ،إلا عن التصرف في مخلوقٍ واحد (نفسه: ١٥١). فالحُب يتأله بنظر الرافعي، وهذا التأله هو التأثير بين شخصين فقط للعودة إلى الجوهر الأول وهذا ما يدل على أنّ الرافعي يُعطي الإنسان بُعداً معرفياً فلسفياً عن طريق القوى الإلهية الكامنة فيه، تبعاً لعقيدته الدينية.

إنَّ موقف الرافعي من الحُب والجمال موقف فكري صوفي، كونه يرى أنَّ الحُب يوصلنا إلى الله عز وجل، وإلى محبة الله تعالى، وهذا الحب الصادق من شأنه تطهير النفس، ثم يتحول الحب بعد ذلك إلى أعلى مراتب الإحسان (الرافعي، ٢٠٠٧م: ٥١٤/٢)، كونه أعلى مراتب العبادة، ليتحول بعد ذلك إلى التطهير الأخلاقي،

وتتحول هذه الفكرة عبر التحول والانعزال إلى التوحد بالمحب والعبودية له، وهي مرحلة من طبيعة الحب، كما هي من طبيعة الدين وحب الرافعي على صلة بالدين والصوفية والخيال واللغة لذلك فالجمال الروحي في أدب الرافعي لا يكتفي بالمشاهد الحسية في عالم المرأة والطبيعة، وهذا ما تفرضه علينا سيرة الرافعي ونشأته الدينية.

إنَّ الرافعي استطاع أن يجسّد شخصيته الرومانتيكية في عموم ما كتب، وفي الشعر الموزون وفي النثر الشعري بخاصة.وقد ساعدته في ذلك العزلة التي فرضتها عليها عاهة الصمم، وميل فطري نحو العالم الروحي والمثالي، وما ينشأ عن ذلك الميل من إشادة بالعاطفة وتمجيد للوجدان. ولقد وضعت تلك الرومانتيكية الرافعي في طليعة تيار أدبي ثالث يقف وسطاً بين تيار المحافظين والمجددين، وكان حريصاً في إبداعه الأدبي على الالتزام بمنطق العصر من جهة والالتزام بالمضامين الإنسانية والقيم الجمالية من جهةٍ أخرى (المقالح، ١٩٨٨م: ١٤٧-١٤٨).

واستطاع الرافعي الشاعر المربي أن يغرس الدرس الأخلاقي، ويُعلي القيم المعنوية، على القيم المادية، ويرى الجمال الحقيقي في عمل الإنسان وخلقه قبل أي شيء آخر، وأن يزن الأشياء بميزان الإسلام ويرى الإنسان والكون والحياة من ذلك التصور ومن هنا يتبين لنا أن مصدر الأخلاق هو الدين ومصدر الجمال المعنوي هو النفس البشرية السوية، فمنها يصدر الجمال فتمثله الأفعال الإنسانية، وفيها تستقبل الصور المعنوية والروحية، فتزنها وتحولها إلى الجمال الحقيقي للنفس الإنسانية الذي ناشد به الرافعي.

النتائج البحث

بعد رحلة سريعة مع الجمال في الأدب العربي الحديث، لابد لنا من وقفة مع أهم ما أدت إليه المقالة من النتائج:

- لايوجد معنى محدد لمفردة الجمال في العربية يعطيها هويتها المستقلة، إذ إن أصحاب العربية يكادون يتفقون على عدة معانٍ تدور في إطار كل مايثير البهجة والسرور في النفس، سواء أ كان عن طريق الحواس أم الذهن وما يتولد عن هذا المعنى من معان فرعية.

- رصدَ البحث ظهور مفاهيم للجمال متنوعة في العصر الحديث، نتيجة التنوع الفكري والثقافي في هذا العصر الذي ساعد على التوسع في مفهوم الجمال.

- لا يوجد تعريف في نظر العقاد للجمال أوفى من تعريفه بأنَّهُ كلَّ ما يُملي للنفسِ الشعور بالحرية الموزونة وكُلُّ ما يجنبها الشعور بالفوضى أو الشعور بالامتناع والتقييد.

- الحرية في مفهوم العقاد تعني التجديد في العمل الأدبي و خروجاً عن النَّزعة التقليدية في الأدب، و الشيء الجميل يُعد جميلاً لمطابقته معنى الجمال في الإدراك، و الحرية الموزونة و الشعور بالحرية الموزونة هو الشعور بالجمال.

- إن العبارة عند العقاد تَحِلّ محل الجسم الممشوق، بل الجمال في الأجسام أشبهُ به في التعبير، و أسلوب العقاد كان يشبه الأنموذج الجمالي الذي يُعجَبُ به في عالم الحس و الواقع.

- يرجع العقاد كلّ جمالٍ في الجسم البشري وفي الفنِّ، على السواء، إلى الحرية، والحرية تُحققُ للإنسان منافع كثيرة لا نهاية لها، و بالجمال نسعى إلى بلوغ الحرية، بهذه النظرة لمفهوم الجمال يتسّعُ معنى الحرية لتشمل حتى الأشياء الجامدة الماثلة في الطبيعة.

- يرى العقاد الجمال صفةً في الجميل نفسه، وهو هنا موضوعي إذ يجعل الجميل ذاته موضوع الجمال و ذلك من خلال جمعه بين الحرية و الجمال.

- إن جمال المرأة ظاهر في أدب العقاد، وهو يميل إلى نظرة العرب في وصف جمالها، لأنَّهم يصفون المرأة الجميلة كما ينبغي ويبدعون في ذلك، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة في المرأة.

- يعتمد الرافعي في تجسيد ثقافته وفهمه للجمال على مصدرين أساسيين هما: التراث العربي و الدين الإسلامي.

- لدى الرافعي مشاعر و أحاسيس تجاه الطبيعة والكون، وتتولد لديه من خلال مشاهدته لهما أفكاراً تنعكس على فهمه الجمال.

- الجمال المحسوس الوصفي يقاس عند الرافعي بالنظر وهو جمال صحيح، ولكن ما يرضي الإنسان هو الجمال الروحي الذي يُعجب به و يرضى لكونه الجمال الحقيقي.

- نظرة الرافعي إلى الجمال تنقله من الحسية إلى المثالية، والمرأة والطبيعة مصدران يستمد منهما موضوعي الحُب والجمال، ويقيم عليها فلسفته الجمالية.

- إنَّ موقف الرافعي من الحُب والجمال موقف فكري صوفي، فهو يرى أنَّ الحُب يوصله إلى الله عز وجل وإلى محبته، وهذا الحب الصادق من شأنه تطهير النفس.

***

المصادر والمراجع

١_ إبراهيم زكريا، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة.

٢_ ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

٣_ الأسعد محمد أسعد، الاتجاه المثالي في الفكر العربي المعاصر، بإشرف جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٠م .

٤_ إسماعيل عزالدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٥_ الأصفهاني الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، مطبعة التقديم العربي، ١٩٧٢م.

٦_ البدري مصطفى نعمان، الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، بإشرف دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

٧_ ــــــــــــــــــ ، الإمام مصطفى صادق الرافعي، مطبعة دار البصري، بغداد، ١٩٦٨م.

٨_ البرجاوي عبدالرؤوف، فصول في علم الجمال، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م.

٩_ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨م.

١٠_ الجمحي إبن سلام، طبقات فحول الشعراء، قراءة وشرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ١٩٧٤م.

١١_ حافظ عبدالسلام هاشم، الرافعي ومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
١٢_ الخطيب محمد كامل، نظرية الشعر، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٦م.
١٣_ دومة علي عبدالخالق علي، في الأدب ومذاهبه، ط١، دار قطري بن الفجاءة الدوحة، قطر،١٩٩٠م.
١٤_ الديدي عبدالفتاح، علم الجمال، مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٨١م.
١٥_ ـــــــــــــ، النقد والجمال عند العقاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.
١٦_ الدينوري أبو محمد عبدالله بن مسلم، عيون الأخبار، دار المكتبة المصرية، القاهرة، ١٩٢٨م.
١٧_ ـــــــــــــــــــــــ، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة،١٩٤٥م.
١٨_ الرازي محمد بن ابي بكر، مختار الصحاح، الكويت، ١٩٨٣م.
١٩_ الرافعي مصطفى صادق، أوراق الورد، ط٨، مطبعة الاستقامة بالقاهرة،١٩٦٧م.
٢٠_ ـــــــــــــ، حديث القمر، ط٧، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٤م.
٢١_ ـــــــــــــ، رسائل الأحزان، ط١، دار الصحوة، القاهرة،٢٠٠٨م.
٢٢_ ـــــــــــــ، السحاب الاحمر، ط١ دار الكتاب العربي، بيروت لبنان٢٠٠٦م.
٢٣_ ـــــــــــــ، وحي القلم، ضبطه يوسف علي بديوي، ط٢، دارالتربية، دمشق، ٢٠٠٧م.
٢٤_ الزمخشري ابو القاسم محمود، أساس البلاغة، ط٣ ، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.
٢٥_ الشكعة مصطفى، الرافعي كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً، ط٣، عالم الكتب، مصر، ١٩٨٣م.
٢٦_ صليبا جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧١م.

٢٧_ العريان محمد سعيد، حياة الرافعي، ط٨، مطبعة الاستقامة ،القاهرة، ١٩٥٥م.
٢٨_ العقاد عباس محمود، اللغة الشاعرة، مطبعة الاستقلال، الفجالة، القاهرة.
٢٩_ ـــــــــــــــــ، مطالعات في الكتب والحياة، المجموعة الكاملة، المجلد الخامس والعشرون، في الأدب والنقد، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.
٣٠_ ـــــــــــــــــ، هذه الشجرة، المجموعة الكاملة، المجلد الثاني عشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
٣١_ العمري زينب عبدالعزيز، شعر العقاد، مكتبة الشباب، القاهرة.
٣٢_ الكبيسي محمد محمود، الألفاظ الجمالية في اللغة العربية، بغداد، ٢٠٠٧م.
٣٣_ لؤلؤة عبد الواحد، موسوعة المصطلح النقدي الجمالية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٨م.
٣٤_ المقالح عبدالعزيز، عمالقة عند مطلع القرن، ط٢، منشورات دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨م.
٣٥_ المنجد صلاح الدين، جمال المرأة عند العرب، بيروت، ١٩٥٧م.
٣٦_ النويهي محمد، وظيفة الأدب بين الإلتزام الفني والإنفصام الجمالي، مطبعة الرسالة ١٩٦٧م.